المجلد السابع والعشرون للعام ٢٠٢٣م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

معنى العزلة في النثر القديم

The meaning of solitude in the ancient prose

بقلم الدكتورة

مي عبد العزيز الوثلان

أستاذ الأدب القديم المساعد، قسم اللغة العربية،
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الملك سعود
المملكة العربية السعودية

الجزء الأول (إصدار يونيو ٢٠٢٣م)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

معنى العزلة في النثر القديم

مي عبد العزيز الوثلان

قسم الأدب القديم ، قسم اللغة العربية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الملك سعود ـ المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني : mwathlan@ksu.edu.sa

الملخص

يعتني هذا البحث بجملة من النصوص الحاثة على العزلة والانفراد، ويشكل مجموع هذه النصوص النثرية القديمة خطابًا مضادًا للمألوف والسائد، ومناهضًا للطبيعة الإنسانية السوية، فهو خطاب يقوم على نفي اجتماعية الإنسان وأنسه بالجماعات، ويتبين في نصوص الدراسة المرجعيات المختلفة التي يستند عليها أصحابها في تبريرهم للعزلة، ونلاحظ متانة العلاقة بين الدين، والتصوف، والعزلة وغير ذلك من دوافع ذوقية وأسباب مزاجية ومبررات إبداعية.

وتنطوي هذه الدراسة على هدف رئيس يتمثل في إبراز مخالفة هذا الخطاب مقارنة بنصوص الخلطة والتأنس التي تهدف إلى حفظ العلاقات وتمتينها، والإلماح إلى درجة المخالفة أو الضدية في كثير من النصوص بين الخطابين، ومن ثم تناولت الدراسة المعاني الحافة بالعزلة من حزن و وحشة والتباس بالجنون، وختمت الدراسة ببيان مسالك العزلة في النصوص.

وخلصت الدراسة إلى أن المنعزل في عزلته الاختيارية يمارس نوعا من التواصل، فالخلوة مع الله والانقطاع للعلم والكتب، تشف عن رغبة ضمنية بتحقيق الاتصال مع الغير والأنس بالآخر.

الكلمات المفتاحية : الانفراد، الوحشة، طقس العبور، تقديم الذات .

The meaning of solitude in the ancient prose

Mai Abdul-Aziz Alwathlan.

Department Classical Arabic Literature, Department of Arabic Language and Literature, College of Humanities and Social Sciences, King Saud University, Saudi Arabia

Email: mwathlan@ksu.edu.sa

Abstract

This research conducted mainly to study texts urges for solitude and isolation. Those ancient prose texts express speeches against the common norm and the normal human nature. It is a speech that denies the socialism of the humanity and the joy of companiable. The studded texts uncover the various references that their users underly to justify their solitude. A noticeable strong relationship between religion, mysticism, solitude and otherwise of tasteful motivation, moodiness reasons and creativity justification .

The main objective of the study is to highlight the difference if this speech as opposed to text about social and company which aims to maintain and strengthen relationships. Moreover, indication of the degree of disparity or opposites in various texts between the two speeches. Accordingly, the study looked at the meanings that engorge isolation which includes sadness, desolation, and madness. The study concluded by explaining the path of solitude in the texts .

The study found that the isolated in the chosen isolation practice type of interaction such as solitude with God and isolation for learning and books express an implicit desire of achieving connection with the others and enjoying the company .

Keywords: Solitude, Desolation, Rite of passage, Self-presentation

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

شغلت العلاقات الإنسانية والوجدانية حيزًا كبيرًا من كتب الأدب، فأفردت تلك الكتب أبوابًا لآداب الصداقة والمعاشرة وواجبات الأخوة وغيرها، وتناولت جملة من القواعد الضابطة لتلك العلاقات، والأعراف المقننة لها. وتتجلى العناية الدقيقة بإنشاء الصلات وتعميق المودات وكيفية صونها والمحافظة عليها في مباحث فرعية، تنصّ على أدب الزيارة وطرق المحادثة والمؤاكلة، وأخلاق التعامل بين الأفراد، وما تتطلبه هذه العلاقات من سياسات كالتماس العذر والإغضاء وغير ذلك، وكلّ هذه المباحث مرتبطة بتنظيم الجماعات ودالّة في الوقت نفسه على أهمية الروابط الاجتماعية. يقول التوحيدي في رسالة "الصداقة والصديق":" الإنسان لا يمكنه أن يعيش وحده، ولا يستوي له أن يأوي إلى المقابر، ولا بدّ من أسباب بها يحيا، وبأعمالها يعيش، فبالضرورة ما يلزمه أن يعاشر النّاس، ثمّ بالضرورة ما يصير له بهذه المعايشة، بعضهم صديقًا، وبعضهم عدوًا، وبعضهم منافقًا، وبعضهم نافعًا، وبعضهم ضارًا"(١). وتكشف مقولة التوحيدي عن حاجة الإنسان إلى المعاشرة والمخالطة، فذلك من صميم الطبيعة الإنسانية؛ لاستكمال نقصها، وسدّ حوائجها بالشبيه والمخالف. يقول الفارابي:" كلّ واحد من النّاس مفطور على أنه محتاج، في قوامه، وفي أن يبلغ أفضل كمالاته"(٢). ويتواتر معنى الحاجة إلى الآخر في نصوص كثيرة تبين المغزى

(١) التوحيدي، الصداقة والصديق، تح: إبراهيم الكيلاني، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٨م، ص١٩١.

(٢) الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة ومضّاداتها، نشره بعناية علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٥، ص١١٢.

من عقد العلاقات، وتسرد المنافع الناجمة من الاندماج بالنّـــاس، فالخِلطـــة مورد من موادر السعادة[١]؛ طاردة لهمّ التوحد، ومحققة للأنس، ومبعدة عن الهلكة والتوّحش. يقول الجاحظ:" ولست بمنتفع بعيش مع الوحدة، ولابدّ من المؤانسة"[٢].

نجد في مقابل ذلك، في كتب التراث خطابًا نافرًا؛ يحتفي بالعزلة ويمجد الخلوة، وينفّر من الاختلاط بالنّاس، ويحذر من معاشرة الإخوة والأقربـــاء، فقد ورد في كتاب "العزلة والانفراد" قولهم:" توحّش من النّاس كما تتـــوحّش من السباع"[٣]، وفي "المستطرف" ورد قولهم:" نعم الشـــيء المـــرض لـــولا العيادة"[٤]. ويبدو في هذين النصين مـــدى مخالفتهمـــا للطبيعـــة الإنســـانية وتقويض حاجتها الفطرية، والتشكيك في العلاقات الاجتماعية، ويبرز فيهمـــا النزعة المعادية للآخر، فوطأة المرض والصبر على علاّته تتضاءل بـــإزاء تجشّم مخالطة النّاس.

وقد ظهرت عناية المؤلفين بموضوع العزلة في إفرادهم هذا الموضوع بمؤلفات خاصة به، مثل كتاب" العزلة والانفراد" لابن أبـــي الـــدنيا وكتـــاب"

---

(١) يقول ابن مسكويه:"وجب أن تكون أشخاص النّاس كثيرة، وأن يجتمعوا في زمـــان واحـــد على تحصيل هذه السعادات المشتركة" ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تح: ابن الخطيب، مكتبة الثقافة الدينية،الإسكندرية، ١٩٩٨،ج١،ص٢٢.

(٢) الجاحظ، رسائل الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ج٤ص٧٨.

(٣) ابن أبي الدنيا، العزلة والانفراد، تح: مسعد الســـعدني، مكتبـــة الفرقـــان، القـــاهرة، ط١، ٢٠٠٥م،ص٢٤.

(٤) الأبشـــيهي، المســـتطرف، تـــح: درويـــش الجوييـــدي، المكتبـــة العصـــرية، بيـــروت، ٢٠١٣م،ج١،ص١٥٦.

العزلة" للخطابي، وإذا كانت هذه الكتب تسفر عن مضامينها منذ الوهلة الأولى من خلال العناوين، فإننا يمكن أن نعدّ بعض المؤلفات بسبيل كتب العزلة في نبذها للتأنس وكراهيتها للممازجة، من ذلك ما دُوِّن في ذمّ الصداقة والصحبة، ككتاب السيوطي المعنون بـ" الشهاب الثاقب في ذمّ الصديق والصاحب"، وأيضًا رسالة التوحيدي"في الصداقة والصديق" في بعض وجوه تأويلاتها(١)، بالإضافة إلى نصوص أخرى مبثوثة في كتب الاختيارات، فالمستطرف يعيّن بابًا تحت عنوان "ممّا جاء في العزلة ومدح الخمول وذمّ الشهرة".

ويتشكل من جماع هذه النصوص خطاب مؤصل للعزلة، وهو خطاب مهم وحاثٌ على النظر و التدّبر، لكونه مخالفًا للمعهود؛ الذي ترسّم في نتاج هائل من النصوص الشعرية والنثرية، وجلّها تشف عن اجتماعية الإنسان وميله إلى تكوين العلاقات ومدى أنسه بالآخر. من هنا، ينصرف هذا البحث إلى تأمّل الخطاب الحاث على العزلة(٢)، في كتب الأدب والأمثال، والرقائق والأخلاق وغيرها، ويقف على النماذج التي تكون فيها العزلة، اختيارا فرديًا أو حرّا، وبذلك نستثني ماكان من قبيل العزلة القسرية والإقصاء المفروض، كحجب بعض الخلفاء، وعقوبات السجن، ونفي المخالف لأعراف الجماعة.

---

(١) يقول هيثم سرحان عن رسالة الصداقة والصديق إنها:" لا تؤسس سرديات الصداقة وأحوال الصديق فحسب، وإنما تستبطن تأسيسًا لسرديات العداوة والأعداء" الأنظمة السيميائية دراسة في السرد العربي القديم، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م،ص٤١.

(٢) نشير إلى دراسة سابقة لبسمة بن سليمان في موضوع العزلة معنونة بـ آداب العزلة وسكنى الفيافي، دراسة في العلاقة بين السردي والطقسي كتاب "التشوف إلى رجال التوصف لابن الزيات أنموذجًا" اتحاد الكتاب التونسيين، ع ٣، ٢٠٢٠ أفريل (٦٠_٩٦).

ومجموع الأسئلة التي سيكون عليها مدار البحث هي: ما العزلة وما مقتضياتها، ولم ننظر إلى خطاب العزلة بوصفه خطابًا مضادًا؟ وما الدوافع التي تجعل المنعزل ينخرط في العزلة انخراطًا جزئيًا أو كليًا ؟ وما مسالك العزلة في النصوص؟

وجمعت الدراسة نماذج مختارة، من مضان مختلفة وسياقات متنوعة، ونستعين في مقاربة هذه النصوص النثرية القديمة، وتحليلها بالمباحث السوسيولوجية والأنثربولوجية.

وقد جاء البحث في مقدمة وثلاثة محاور، أولها: يتعلق بتعريف العزلة والمحور الثاني: يتناول الأحوال المنجرّة عن العزلة، وثالث المحاور: مسالك العزلة في النصوص، مشفوعة بخاتمة تتضمن نتائج البحث.

تعريف العزلة:

تدور مادة عزل في المعجم حول معنى الابتعاد والانفصال، فاعتزل الشيء تنحى عنه، واعتزلت القوم أي فارقتهم وتنحيت عنهم، ويتلّبس هذا المعنى في كثير من السياقات لبوسًا سلبيًا، إذ إن المعزال هو الذي ينزل ناحية من السفر وحده، وهو ذمّ عند العرب بهذا المعنى، من جانب آخر مثّل الراعي المنفرد الذي يتتبع مساقط الغيب، ويعزب فيها من ذوي البأس والشجاعة والنجدة[١]. وتعرّف العزلة في المباحث السوسيولوجية بأنها" الحالة الفردية التي يلجأ إليها الفرد في مواجهة الجماعة، وتتضمن عدم القدرة على التفاعل معها، ضمن حدود البيئة الاجتماعية ذاتها"[٢].

ويبدو أن الاحتجاب عن النّاس بالحواجز المادية، ورفض معاشرتهم من خلال الانزواء في أماكن قصيّة والسكنى في أطراف المدن، من أوجب مقتضيات العزلة ومتطلباتها، فرؤية النّاس مدعاة لخرق العزلة، ومدخل لاضطراب المنعزل؛ فهي تشوش عليه سكونه، وتفسد وحدته، وتقضّ مضجعه، لأن النظر إلى النّاس يشوق القلب إلى مخالطتهم. ومن هنا جاء وصف أصحاب الصوامع بأنهم من طينوا عليهم الباب، سدّا لمنافذ الرغبة التي قد تقدحها الرؤية. ويروي الحموي عن المعرّي إنه يقول:" أجمعت على انفراد يجعلني كالظبي في الكنّاس، ويقطع ما بيني وبين الناس"[٣]. وكذلك

---

(١) مادة عزل، لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م، ج ٤، ص٣٢٨

(٢) صميم حسب الله، تمظهرات العزلة الاجتماعية في المسرح المعاصر، مجلة الأكاديمي، ع ٩٦، ٢٠٢٠، ص٦٨

(٣) الحموي، معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م، ج١،ص٣١٨.

جاء في المستطرف هذا الخبر: " إن ابنك يقول وودت لو أني بالمكان الذي أرى النّاس فيه ولا يرونني، فقال: ويح ابني لم لا أتمّها فقال: لا أراهم ولا يرونني"[١]. يسلك الابن، في النص السابق، مسلكًا وسطًا؛ فيرجو أن تكون عزلته الخاصة ومكان خلوته، مخاتلة؛ فمن جهة يشرف على النّاس ويتمتع برؤيتهم ويأنس بها، ومن جهة أخرى يتحصن بانفراده فلا يرونه النّاس، ويتبين من آخر النصّ أن الرؤية مزلق خطر لأنها قد تقود إلى هتك العزلة وتدنيسها.

ولئن كانت الرؤية هنا مزلقًا للاختلاط والمعاشرة، فإنها في بعض الأحايين لا تشكل خطرًا على الرائي، فالعزلة لا تقتضي بالضرورة وجود المسافات، فالتوحيدي يقول:" لربما صليت في الجامع، فلا أرى إلى جنبي من يصلي معي، فإن اتفق فبقّال أو عصّار أو ندّاف..، فقد أمسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة،.. مستأنسًا بالوحشة، قانعًا بالوحدة"[٢]. تنبئ هذه المقولة عن حاجز آخر يقوم مقام الاحتجاب المادي، والتحصّن بالمنازل والدور، وهو ذلك البون العميق بين النّاس في الصفات والمواهب، وأيضًا، تفاوتهم في الطبقات الاجتماعية والمستويات الماديّة، فمعاشرة البقّال والندّاف والبسطاء من العامّة، لا تنفي شعور الوحدة بل تعمّقه، فالتوحيدي يتطلب في علاقاته وجود الندّ والنظير، وذلك لأن" الشكل أفهم عن شكله، وأسكن إليه، وأصبّ به"[٣] كما يقول الجاحظ.

---

(١) المستطرف،ج١،ص١٥٥

(٢) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٥

(٣) الجاحظ، الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٤م، ج١،ص٤٥

وإذا وضعنا هذه الأخبار الحاثة على العزلة بإزاء النصوص المناهضة لها، والتي تطفح بدلالات الأنس بمخالطة النّاس، فهل يمكن أن نجعل اختلاف الهوى والأمزجة سببًا في هذا الانقسام فحسب[١]؟ دون أن نسم نصوص العزلة بالغرابة والنشاز؟

لقد اشتركت الثقافات الإنسانية ، قديمها وحديثها، في الإقرار بحاجة الإنسان الفطرية إلى الآخر وتوحشه من الوحدة، ولذلك عملت على تعزيز الروابط الاجتماعية، وتنمية شعور الانتماء إلى الجماعة أيًا كان نوعها، ويبرز ذلك من خلال القيم والممارسات التي تدعم هذه الروابط وتعمقها، وتبعد أفرادها عن التشتت والتفرق[٢]، ولذا تبدو نصوص العزلة خارجة عن المساق المألوف والنظرة المعتدلة إلى الحياة والنّاس.

(١) وقد فسّر التوحيدي في "الهوامل والشوامل" اختلاف أحوال النّاس، في حبّ الاجتماع أو إيثار التفرد بالمزاج، ويميز بذلك بين صنفين من النّاس" ذلك أن صاحب السوداء والفكر السوداوي يحب الخلوة والتفرد ويأنس بذلك، أما صاحب الفكر الدموي فإنه يحبّ الاجتماع والنّاس وربما آثر النزهة والفرجة". التوحيدي، الهوامل والشوامل، مؤسسة هنداوي للنشر، ص٢٧٤.

(٢) " باللباقة والسلوك الإنساني تصان وتحفظ أشكال الاجتماع كلها بين البشر" و" العلامات الكبرى للمدينة[هي] السكينة والتآلف والتوافق والزمالة والصداقة" ص٥٦ وكذلك " كان ضروريا تطوير قدرات تقديم الذات والبلاغة والإقناع وكسب الأصدقاء وحسن الضيافة والظهور بمظهر رائع وطيب الأثر لدى الآخرين .." ص٥٠ ، تشارلز تايلر، المتخيلات الاجتماعية الحديثة، تر: الحارث النبهان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ٢٠١٥.

ونبرهن على ذلك بتواتر الارتباط بين العقوبة والنفي، فمخالفة الجماعات، على سبيل المثال، يترتب عنها طرد المخالف ونفيه [١]، وقد كشفت النماذج المخالفة عن عمق الأثر النفسي السيئ المتولد عن الإفراد والنبذ، فآدم، عليه السلام، قد شعر بالوحشة بعد نفيه من الجنّة إلى الأرض، عقوبة لانتهاك المحرم، ف" الشعور بالعزلة الحادّة يميل إلى أن يجعل كلّ شيء آخر يبدو غريبًا ومعاديًا، وحينئذ يشعر الإنسان أنه غريب متوحد لا وطن روحيا له"[٢].

وقد تكرر التعبير عن ألم العزلة في كثير من الأخبار والأمثال والقصائد الشعرية، التي جعلت العزل نوعًا من أنواع المعاناة بما تنطوي عليه من الإحساس بالغربة والظلم والمعاداة. يقول طرفة بن العبد :

إلى أنْ تحامتني العشيرة كلُّها ∴ وأُفردت إفرادَ البعيرِ المُعَبّد[٣].

يتضح من البيت السابق الممارسة القهرية التي فُرضت على طرفة، بسبب تمرده على أعراف القبيلة وقيمها، ولعلّ هذه الممارسة المتمثلة في الإبعاد والنبذ تلثم متصور القبيلة والعشيرة التي تعني التماسك واللوذ،

---

(١) يخصص ميشيل فوكو بابًا للانضباط بوصفه شكلًا من أشكال السلطة ويقول: " يعني الانضباط أحيانا " الإقفال= العزل" أي تخصيص مكان يختلف عن كل الأمكنة الأخرى، ومنغلقة على ذاتها. ميشيل فوكو، المراقبة والمعاقبة، تر: علي مقلد، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٩٩م، ص١٦٢.

(٢) نيقولاي برديائف، العزلة والمجتمع، تر: فؤاد كامل، دار آفاق للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٨، ص١٤٩

(٣) ديوان طرفة بن العبد، تح: مهدي ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٢م، ص٢٥.

والحماية من التشتت والوحدة، ولا يخفى من البيت السابق عظم وقع ذلك على نفس طرفة، مما جعله يرى نفسه كالبعير الأجرب المطلي بالقطران لا يقربه أحد خوف العدوى.

ويشير محمد عبد السلام في كتابه "الموت في الشعر العربيّ" إلى معنى يتواتر في غرض الرثاء، وهو الخوف من المآل الذي ينتظر الميت (القبر) وما يحمله ذلك المكان من وحشة وعزلة بلا أنيس وصاحب، ومن ثم الخوف من تبدد ذكرى الميت ونسيان مآثره ، فالخوف إذن ليس من الموت في حدّ ذاته إنما في ما يستصحبه [١]. ويظهر هذا المعنى أيضًا في المتصور الإسلامي؛ فمقصود الاعتكاف الاشتغال بالله وحده، واستشعار اللذة بمناجاته والأنس به بدلًا من الخلق؛ لأن ذلك موصل للأنس به في وحشة القبر[٢].

ولئن كانت كراهية الانفراد والتوحّش منه تلحق الميت، فإن النفور منه حال الحياة أوكد وأعظم، وهذا المعنى يتعاضد مع ماجرت عليه عادات العرب وطباعها، في ذم الانفراد في السلوك اليوميّ، في المأكل والمشرب وغير ذلك. بالإضافة إلى ما يرتبط بالوحدة من معنى الضعف والمهانة، وما يلحق المنفرد من سمات النقص مثل المخالفة والخطل والخطأ، والتبجح والخذلان[٣]. وهذا يقودنا إلى تدبر المعاني والدلالات المرتبطة بالعزلة في المبحث الموالي.

---

(١) محمد عبد السلام، الموت في الشعر العربي، تر: مبروك المناعي، مؤمنون بلا حدود للنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٧م، ص٦٤ وص١١٠

(٢) ابن القيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تح: نبيل نصّار، دار الفرائد للنشر، مكة المكرمة،ج٢/ص١٠٧

(٣) يقول الجاحظ:" الكبر هو الذي زيّن لإبليس ترك السجود، ووهمه شرف الأنفة، وصور له عزّ الانتقاض، وحبب إليه المخالفة، وآنسه بالوحدة والوحشة" رسائل الجاحظ،ص١٨٠.

الأحوال المنجرّة عن العزلة:

ترد العزلة في نصوص المدونة مقترنة بمعاني ودلالات منها: الوحشة والجنون والوسواس والحزن والفقد، ولهذا الارتباط بالغ الأثر في الدلالة على العلاقة القائمة بينها، ونروم في هذا السياق الإشارة إلى هذا التعاضد وتدبّر هذه المجاورة.

١- الحزن والتبرم:

شاع في الأمثال العربية مقولات تنصّ على أن فقد الأخ المعاون والصديق الحميم، من مقوضات الانشراح والراحة، فـ" فقد الإخوان غربة"(١)و" هدّ الأركان فقد الإخوان"(٢)، وليس ذلك بمستغرب فإن بواعث السعادة والمتع مفارقة للفعل الفردي ومنبتّة عنه، ومقترنة بالعلاقات والجماعات؛ فالإنسان لا يتذوق المضحكات، على سبيل المثال، في حالة العزلة. يقول الجاحظ:" ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب"(٣). فاللذّة هنا منقوصة، ويعضد ذلك ما يقوم به النديم أو المجالس من طرد الملل والسآمة، وتبديد ساعات الأرق والقلق بالحديث واللهو وارتشاف الكؤوس، ولذلك نجد معاني السعة والمتعة وانفراج الهمّ وزواله ترتبط بالآخر والصحبة والجماعات، وبدونهم يتعذر تحصيل المتع الكاملة.

---

(١) الميداني، مجمع الأمثال، تح: محمد عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٩٧٢م،ج٢،ص١٣

(٢) الميداني، مجمع الأمثال،ج٢،ص٤٠٩

(٣) الجاحظ، البخلاء، دار ومكتبة الهلال، بيروت،ط٢، ١٤١٩ه، ص١٦٥

ولطالما كانت المشاركة قسيمة الرضا؛ ويبرز ذلك في مواطن الفرح أو الحزن على السواء، فالبهجة تكثر بوجود الإخوان والأصدقاء، كما أن الحزن يخفت بحضورهم، وهذا المعنى حاضر في كلّ الثقافات وباختلاف العصور والأزمان، وترد لذّة المشاركة في نصوص متواترة، لانستطيع الإحاطة بها في هذا المقام، فقد شاع في الشعر القديم قولهم: أسعداني بمعنى ابكيا معي، في غرض الرثاء والندب. يقول الشاعر:

أسعداني يا صاحبيّ على ه ∴ ذا البكاء حاجتي إلى الإسعادِ [١].

يبدو للوهلة الأولى أن ثمة تنافرًا وتباينا بين البكاء والسعادة، إذ كيف يكون البكاء سبيلا موصلا للسعادة؟

إن ما ترمي إليه لفظة أسعداني هو المشاركة في المصاب والانغماس في المواساة بالبكاء والدمع، وتبين النصوص أن هذه المشاركة تترك أثرًا عميقًا في النفس بالتخفيف من حملها، والمساهمة في إزاحة همّها، وبذا كانت" ابكيا معي" باعثًا على السعادة وموجبًا من موجباتها[٢]. ولم تتبدل هذه الطبيعة الإنسانية النازعة إلى الاطمئنان بمشاركة المسرات واقتسام الهموم، ولذا ورد في الأدب الحديث المترجم قول ساراماغو في رواية العمى: "الأكثر رعبًا من العمى، هو أن تكون الوحيد الذي يرى"[٣].

---

(١) العماد الأصبهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، تح: أزرتاش آذرنوش، الدار التونسية للنشر، تونس، ط٢، ١٩٨٦م، ج٢،ص٨٨٢، وكذلك قول الشاعر: فإن تسعديني نبك عبرتنا معا.. وإلا فإني سوف أسفحها وحدي. الأصفهاني، الزهرة ، تح: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء،ط٣، ١٤٤٣ه، ج١،ص٢٣٩.

(٢) في الرجوع لمادة سعد في المعجم، نلمح الاشتراك بين دلالة السرور والفرح ودلالة المعاونة والمشاركة في الجذر نفسه، مادة سعد، لسان العرب، ج٣/ص٢٨٧

(٣) جوزيه ساراماغوا، العمى، تر: محمد حبيب، دار المدى، بغداد، ط٣، ٢٠١٣، ص٢٦٧

ومن تجليات لذّة التشارك أن النفس لا تستقر ولا تهدأ إلا بالإفضاء والمكاشفة، وذلك لثقل وطأة الصمت والكتمان، فمن أرق ذات ليلة لا يرتاح إلا بإفشاء مكنوناته لصديق، فيتحصل بذلك مبادلة القلق والانقباض بالدعة والسكون، فيقول المنقبض لصاحبه:" قد والله أهديت إلى عيني نومًا"(١)، وفي خبر آخر يدخل الفضل بن الربيع على الخليفة هارون الرشيد في وقت متأخر من الليل ليبوح له بأمر عجيب، لا يكاد يستطيع الإغماض دون كشفه فيقول:" جرى الساعة لي سبب لم يجز كتمانه"(٢). وإذا استرسلنا في هذا الخبر انكشف لنا السرّ المؤرِق، وهو قصته مع الجواري الثلاث فلا موجب للمسارعة إذن إلا الرغبة في مضاعفة هذه اللذّة بمشاركتها من خلال الحديث عنها وعرضها على سامع. وفي سياق آخر يقول المنفرد في مجلس طرب :" ثم وجدت نقصًا في الطرب، إذ لم يكن معي أحد يفهم هذا كما فهمته، ففزعت إليك لأصف ذلك لك ثم أرجع"(٣).وتشير جملة " يفهم ذا كما فهمته" إلى صفة ملازمة للصاحب وإلى شرط مهم تنعقد به العلاقات، وهو الموافقة في الفهم والذوق، ولهذا الملمح بعد مهم في موضوع العزلة، إذ كانت عدم الموافقة في الذوق وانتفاء المشاكلة في العقل والمزاج سببًا في اتخاذ العزلة وهجر النّاس.

(١) الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٢، ج٨،ص٣٧٩

(٢) الأغاني ج١٦،ص٣٧٤

(٣) الرقيق القيرواني، قطب السرور، تح: أحمد الجندي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ج١،ص٣٦

٢- الوحشة:

يطالعنا ملمح صريح في كتب المعاجم، وهو ذاك الاشتراك بين البعد والهلاك في جذر لغوي واحد (بعد)؛ فهو يومئ إلى دلالتين ليستا متعارضتين، فإذا كان يراد بالبُعد (بضم الباء) خلاف القرب، فإن البَعد (بفتح الباء) يعني الهلاك(١)، فالمعجم اللغوي يشير صراحة إلى العلاقة بين الأمرين، فالنأي والعزلة تقتضيان بالضرورة هلاك الإنسان وغربته ووحشته.

وهذا التعاضد بين المعنيين نلمحه في سياق آخر، فإن العرب تقول للميت عند دفنه: لا تبعد، من باب الدعاء له، وهذه العبارة حاثة على النظر، وحاملة على التساؤل والتأمل، فالميت بعيد لأسباب كثيرة، فما غايتهم من هذا الدعاء؟ وردت تأويلات مختلفة لقولهم" لا تبعد" من بينها أنهم يريدون به الدعاء للميت بأن يبقى ذكره حيًا بينهم(٢)، ولكن أليس الثوى في القبر والانفراد فيه موجبًا للوحشة، ومن ثم كان قولهم: لا تبعد من قبيل التعويذة، الطاردة للوحشة والجالبة للأنس.

ومن الملاحظ في السياقات التي تستدعي معاني الأنس والألفة، في النصوص الشعرية والنثرية وكذلك النصوص الواردة في كتب اللغة والمعاجم، أنها تستصحب معها بالضرورة معنى الوحشة والفَرق على سبيل المناقضة والمقارنة، فهناك فضاء الأنس والأمن والسكينة وهو الذي يحفل بوجود النّاس والجماعات، في مقابل فضاء العزلة الموحش المحفوف

(١) لسان العرب مادة بعد، ج١، ص٢٢٤

(٢) الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تح: محمد الأثري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٩،ص١٤

بالخطر والخوف، فالناس" يتعايشون على مقادير الأنس الذي بينهم، لو عمّتهم الوحشة عمّتهم الهلكة"(١)، وكذلك يقولون: " أنس الأمن يذهب وحشة الوحدة "(٢).

ومن أبرز السياقات التي تتجلى فيها هذه الضدية أو المفارقة، ما نقرأه في وصف الدواب، إذ يذكر المعجم أن للدابة شقين؛شقّ للركوب والحلب وهو موضع الأمن، والشق الآخر شقّ وحشي لا تؤتى الدابة من قبله، ويسمى موضع الإخافة، والإنسان يفرّ من موضع الإخافة إلى موضع الأمن(٣).

٣- **الجنون**:

تبدو العلاقة بين العزلة والجنون وثيقة، فالجنون نتاج من نتاجات الانعزال والخلوة الموحشة، وهي تفعل في أصحابها الأفاعيل وتسمهم بغرابة الأطوار، وهذه السمة من شأنها أن تنفر النّاس من مخالطة المنعزلين وتولّد العجز عن الارتياح إليهم.

ولعلّ المعنى المعجمي لدال الجنون يشير إلى الفكرة ذاتها، وأعني ارتباط الجنون بالانفراد والاختلاف، والانعزال والنبذ، ومخالفة المألوف والجماعة(٤). يقول الجاحظ:"إن القوم لما نزلوا بلاد الوحش، عملت فيهم

---

(١) الجاحظ، الحيوان،ص ٢٣٢.

(٢) الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، تح: عبد الفتاح الحلو، الدار العربية للكتاب، ط٢، ١٩٨١م، ص٣٩٨.

(٣) لسان العرب مادة وحش ج٦،ص ٤١١.

(٤) في لسان العرب قول بدر بن عامر: ولقد نطقت قوافيا إنسية ولقد نطقت قوافي التجنين، وأراد بالتجنين ما تقوله الجنّ وقال السكري أراد بالغريب الوحشي، وعن ابن الأعرابي: بات فلان ضيف جن أي بمكان خال لا أنيس به مادة جنن ج١/ص٤٧٣

الوحشة، ومن انفرد وطال مقامه في البلاد والخلاء، والبعد من الإنس، استوحش، ولا سيما مع قلّة الأشغال والمذاكرين. والوحدة لا تقطع أيامهم إلا بالمنى والتفكير، والفكر ربما كان من أسباب الوسوسة".(١) تؤكد مقولة الجاحظ على أمرين اثنين، أولهما أن الاختلاط بالنّاس ومعاشرتهم سبب للنجاة من الهمّ وحرز من الإصابة بالوسواس، والثاني: أن انمحاء النّاس من مكان ما، داع إلى وجود فواعل أخرى موحشة ومخيفة كالجنّ والوحش والهواتف.

يتأكد هذا التداخل بين العزلة والجنون في الفضاءات المتخذة؛ فإذا كانت الجبال والصحاري مكانًا ملائمًا للانزواء والانقطاع عن النّاس، فهي في الوقت نفسه من أعلق الأماكن بالوحشة والجنون، يروي الأصمعي قولهم: " أجنّ الله جباله، أي الجبال التي سكنها، أي أكثر الله فيها الجن، أي أوحشها"(٢).

وفي السياق نفسه يشير العادل خضر في كتابه "الجاحظ وبيان الآخر" إلى ماسماه الإنسان المستبح أو الباحث عن موضع النّاس، ذلك أن الإنسان التائه في الصحراء يمارس فعل النبح للاهتداء إلى كلب الضيافة، وفي ممارسة هذا الفعل خروج من العقل والإنسانية إلى الحيوانية بسبب الخلاء والوحشة(٣)، وفي مسار عكسي تبدو لنا العزلة في القفار مصيرا حتميا لمن

(١) الحيوان ج٦،ص٢٤٨. يقول ابن أبي الدنيا:" لولا مخافة الوسواس، لدخلت إلى بلاد لا أنيس بها" العزلة والانفراد،ص١٨

(٢) الميداني، مجمع الأمثال، ج١،ص٢٠٨

(٣) العادل خضر، الجاحظ وبيان الآخر، دار مسكلياني للنشر، تونس، ط١، ٢٠١٧٧م،ص٤٢

مسّه الجنون، فالجنون ينفي صاحبه من حياة الخلطة ومن الاستقرار في المدن[١].

ونصل من هذه النصوص إلى نتيجة مفادها أن الخلطة بالناس والإقامة معهم في المدن وما أشبهها والالتزام بقواعد الجماعات وقوانيها طريق مفضية إلى الأنس والسكينة، ودالة على التعقل والاتزان، وبضدها فإن انعزال الإنسان وانفراده في الصحاري والقفار، مؤدٍ إلى الوحشة والتحرر؛ تحرر من قوانين الجماعة وأعرافها وتحرر العقل من عقاله ولوثته[٢].

(١) جاء في لسان العرب" فنفخ في إحليل عمارة فاستوحش أي سحر حتى جنّ فصار يعدو في البرية حتى مات" لسان العرب مادة وحش، ج٦،ص٤١٠

(٢) ويؤكد ذلك ما جاء في شرح قول كعب في قصيدة الشهيرة بانت سعاد : ترمي الغيوب بعيني مفرد لهق، قولهم: " وأصل الكلام بعيني كعيني مفرد وإنما خصّ المفرد أي الذي قطعه القطيع وأفردوه، لأنه يكون أحد نظرا، وأكثر توجسا، وتيقظا" ولعل كثرة الحذر التوجس والخوف من موجبات اللوثات والجنون. محمد أبو موسى، قراءة في الأدب القديم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٤، ٢٠١٢، ص٤٦

مسالك العزلة في نصوص المدونة:

العزلة بوصفها طقسا للعبور:

ونعني بذلك اتخاذ العزلة فضاءًا حاثًا على التأمل والتدّبر والتفكّر، والسياحة في التصورات والمعاني، للوصول إلى لحظات التجلّي، والعزلة بهذا المعنى تكشف الإنسان لنفسه، وتشحذ حواسه، وتصهر أفكاره، فهي أشبه ما تكون بطقس العبور؛ لأن الذات الداخلة إليها غير الخارجة منها، فقد ازدادت بصيرة وحكمة وفهمًا. نلمح هذا المعنى في عزلة النبي، صلى الله عليه وسلم، في الغار قبل البعثة، ويتواتر أيضًا في نصوص المتصوفة، إذ مثلت العزلة لديهم العتبة الممهدة (طور التهيؤ والإعداد) يقول القشيري:" لابد للمريد، في ابتداء حاله، من العزلة عن أبناء جنسه"(١). وبحسب المراحل الزمنية الثلاث لطقوس العبور(٢)، فإن العزلة هي المسلك الرابط بين الاستهلال والاختتام، فهي عتبة اختبارية تخوّل للصوفي الترقي في المنزلة، فيباين بوصوله إلى الحضرة الإلهية وصف التابع أو المريد المبتدئ إلى المعلم المستقل.

وتحضر هذه العزلة المؤقتة (البرزخية) في سياقات أخرى، فمن النّاس من يركن إليها بحثا عن الراحة النفسية والجسدية، المتأتية من البعد عمّا تفرضه طبيعة الحياة الإنسانية من تدافع، وما تستلزمه الاجتماعات البشرية

---

(١) القشيري، الرسالة القشيرية، تح: عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ٢٠١٤، ٢٠١٤م، ص١٠٤.

(٢) يشير فان جينيب إلى أن طقس العبور يمر بثلاث مراحل: انفصال، وهامشية، وإندماج، نقلا عن سوزان ستيتكيفيتش، القصيدة العربية وطقوس العبور، دارسة في البنية النموذجية، مجلة اللغة العربية، دمشق، مجلد٦ عدد ١، كانون الثاني، ١٩٨٥، ص٥٩.

من مكابدة، وذلك لخلق صورة حسنة حال المعاشرة، وللمحافظة على ماء الوجه.

ولأن الإنسان يمرّ بمنعرجات متنوعة في ليله ونهاره، كانت الحاجة ماسّة للأخذ بالحظّ من العزلة[١]، التي يَعبر المنعزل فيها من وضعية مضطربة وقلقلة إلى أخرى ساكنة، فينتقل بذلك من الارتباك إلى التوازن والاستقرار، ومن التنافر إلى السكينة والانسجام. فـ" ثمة فكرة واسعة الانتشار مفادها أن القيود المفروضة على تماس، كالابقاء على مسافة اجتماعية، توفّر سبيلا لتوليد الرهبة لدى الجمهور وإدامتها؛ وهو سبيل يمكن من خلاله إبقاء الجمهور في حالة من التعمية حيال المؤدي"[٢]، والفكرة التي نرمي إليها من هذا النصّ، هي التوكيد على وظيفة من وظائف العزلة، وهي الحماية من فقدان الواجهة الاجتماعية بسبب ضغط التفاعل؛ إذ تهدف العزلة إلى زيادة التهيؤ للظهور بمظهر لائق أمام النّاس، والمساعدة في تحسين الشخصية وصقلها، وهذا كلّه من شأنه أن يمنع المختلي من الوقوع في سوء التمثيل كما يرى غوفمان[٣].

ومن صور العزلة المؤقتة ما نجده من انقطاع العالم في خلواته، وانصرافه عن الناس ومشاغلهم؛ من أجل التفرّغ للملاحظة والتأمل، والوصول إلى الحقيقة التي لا تظهر معالمها ولا تتبين ملامحها حال وجود الآخر الملهي والصارف. يقول ابن الجوزي:" إذا خلت دار الخلوة عن

(١) الأبشيهي، المستطرف من كل فن مستظرف، ج١،ص١٥٥.

(٢) غوفمان، تقديم الذّات في الحياة اليومية، تر: ثائر ديب، دار معنى للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ٢٠٢١م، ص٨٠.

(٣) غموفمان، تقديم الذّات في الحياة اليومية،ص٧٠.

الصور تفرّغ القلب لملاحظة المعاني"[١]وكذلك يقول:" لايظهر في خلوة المتيقظ إلا الحق"[٢]. يقرر ابن الجوزي مقوّمات سلوك الخلوة، وهي(عقل يقظ، تفرغ تام) ويعرضها في مشهد خاص، فيضرب لذلك مثلا بصورة الفرس الوارد على الماء يقول" تأملوا إلى الفرس إذا قدم على الماء الصافي كيف يضرب بيديه فيه حتى يتكدر، أتدرون لم لأنه يرى صورة نفسه في الماء الصافي وصورة غيره فيكدره، حتى لا تتبين فيه الصور فيتهنى بالشرب"[٣]. ويتضح لنا من نصوص ابن الجوزي، أن العزلة لا تقصد لذاتها، فما يتحصل عليه المنعزل من لذّة ومتعة لا يتحققان من فعل العزلة، بل مما يترتب عنه من منافع؛ فهي خلوة موصلة إلى إدراك، وانعزال ينتهي بالتبصّر، ولذا كان للعزلة دور مهم في إنتاج المعارف الإنسانية وإعادة صياغتها.

إذن العزلة هنا، طور من أطوار حياة الإنسان الحافلة بالمتناقضات، نشاط فركود، اتصال بالنّاس يعقبه انفصال، عزلة فتلاحم.

(١) ابن الجوزي، المدهش، تحقيق مراون قباني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٥،ص٤٢٧.

(٢) المدهش، ص٤٢٧.

(٣) المدهش،ص٤٢٧.

العزلة عبادة:

كان الدين القادح الأساسي للاحتماء بالعزلة وإضفاء المشروعية عليها، فمخالطة النّاس والتفاعل معهم يقودان إلى الخطأ والزلل، ومن أبرز ما يخشاه المنعزل في خلطته الرياء والمباهاة في الأعمال الدينية والدنيوية يقول المحاسبي:" جميع أعمال طالبي الدنيا لا تتمّ إلا بالرياء"(١)، ولذا شكّلت العزلة مناخًا ملائمًا للاشتغال بعيوب النفس وإصلاحها، وكفّ أذاها عن النّاس وصولا للاستقامة، ومن ثم شكلت العزلة اللسانية، إن صح التعبير، نقطة الارتكاز في العزلة التعبدية، فالأحاديث اليومية لابدّ أن يشوبها شيء من الغيبة والنميمة والخوض في النّاس بما يكرهون، ولذا كانت العزلة سبيلا لكفّ اللسان عن المزالق. يقول ابن الجوزي:" فيا للعزلة، ما ألذها، سلمت من كدر الغيبة، وآفات تصنع، وأحوال مداجاة، وتضييع الوقت، ثم خلا فيها القلب بالفكر، لأنه مستلذ عنه بالمخالطة، فدبّر أمر دينه وآخرته، فمثله كمثل الحمية، يخلو فيها المعي بالأخلاط فيذيبها "(٢). ونلاحظ أن ابن الجوزي ينطلق من الدين في تبرير سلوكه الانعزالي؛ فالعزلة سلامة من ارتكاب المنهيات الشرعية، وحماية للنفس من المداراة والمداهنة، وحفظ للوقت من الهدر بلا جدوى، ولذا شبه ابن الجوزي العزلة بالحمية(٣)، لأن

(١) المحاسبي، الخلوة، المحاسبي، شرحه أغناطيوس اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٥،ص١٩

(٢) أبو الفرج بن الجوزي، صيد الخاطر، المحقق عامر ياسين، دار ابن خزيمة، الرياض، ط١، ١٩٩٧م،ص٢٠٩

(٣) يتواتر هذا التشبيه في نصوص أخرى من بينها ما ورد في كتاب الخلوة للمحاسبي،ص٨: "فنظرت في ذلك فلم أر شيئا أقرب في مصلحت [كذا] النفس والعيش من حمية النفس عن إلفها".

فيها تربية للنفس على الرضا والقناعة والتواضع، والتحرر من المتطلبات المادية، والتهافت على المناصب، وفي ذلك راحة وسكينة وتفرّغ إلى ما هو أجدى وأعظم ونعني به الانكباب على العبادة وطلب الآخرة.

وهذه العزلة التعبدية تتضمن تفرغ القلب وتيفظ العقل المتأتيان من انصراف الحواس عن ملاحظة الناس وسماعهم، فالخلوة مع الله والقرب منه ولذة منجاته، مشروطة بالبعد عن النّاس والاستيحاش من مخالطتهم يقول المحاسبي:" يهيج من حب الخلوة الوحشة من النّاس واستثقال كلامهم والإنس بكلام رب العالمين"(١). وهذه الضدية تتسرب في معان أخرى، فضيق الدنيا موصل إلى سعة الآخرة، وحزن الفانية طريق سرور الباقية.

ولا يخفى ارتباط العزلة الدينية بمعاني التطهّر والتكفير عن الزلل، لما للعزلة من أثر في مراجعة الأعمال ومحاسبة النفس والاعتبار، فالتوبة والإنابة والإقرار لله بمقارفة الذنوب لا تحدث إلا في خلوة، وقد ترّسم المفسرون هذا الملمح من إرجاء يعقوب فعل الاستغفار في قوله :" سوف أستغفر لكم ربي".

ولا شك في أن الربط الحتمي بين العزلة والتعبد ينطوي على نوع من المغالاة، فإن كانت العزلة مساحة خاصة لممارسة التعبد فإنها في الوقت نفسه قد تكون سترا لمقارفة المحرمات، وهتك المحذورات، ومن جانب آخر فإن بعض النصوص المقدسة تدعو إلى اللوذ بالجماعة والتحصن بها، والصبر على الأذى الناجم عن المخالطة، وعدّ ذلك علامة من علامات قوة الإيمان.

(١) المحاسبي،الخلوة،ص١٠

العزلة انعتاق:

تواتر ذكر الصاحب والمعين في نصوص كثيرة، شعرية أو نثرية، بوصفه المرافق في السفر والمؤنس في السمر، حتى جرت العادة بذكره وإن لم يكن مشاركًا في الموقف، فقد حلّت لفظة التثنية في مبتدأ الخطاب لتأكيد الطبيعة الإنسانية النازعة إلى حبّ التفاعل والمشاركة، بل ربما آثرت هذه النزعة التشارك في المصاب والحزن على الانفراد في المسرة.

ويقوم خطاب العزلة، في مظهر من مظاهره، على تقويض هذه العلاقات الاجتماعية المألوفة، والتشكيك في كثير من القيم الإنسانية، وينحو خطاب العزلة إلى الزهد من الحيّاة، ونفض اليدّ من النّاس قريبهم قبل بعيدهم، فالمعتزل يشكو من طبائع النّاس الفاسدة التي لا طاقة له على تحملها ولا قدرة له على إصلاحها، فالجفاء قوام العلاقات، والترصد للعثرات والزلات مما يكلف به النّاس، وحفظ الودّ وصيانته قليل بل معدوم. وقد جاء في مجمع الأمثال كثير من النصوص الطافحة بالتذرم من النّاس من بينها:" تركتني خبرة النّاس فردًا "[1]. وتتجلى هنا طبيعة الأمثال العربية المتسمة بطابع الاختزال والتكثيف، فلا يشرح النصّ ملابسات الخبرة بالنّاس، ولا يبين فحواها، ولا يتعمق المثل في تفاصيل تلك العلاقات والخسائر الناجمة عنها، فجاء التركيز كلّه على المحصلة النهائية من الصداقات والمودات وهي الانفراد، وللقارئ أن يخمن كافة الدلالات الثاوية خلف هذا المثل.

وتنبني كثير من النصوص على ترسيخ فكرة التضرر من الأقارب والأصدقاء، فالتجاور والقرب، والانصهار في المودة وتكشّف الأسرار

(١) الميداني، معجم الأمثال، ج١،ص١٢٢

وغيرها، مداخل موصلة لإلحاق الأذى ومسهّلة لإحداث الضرر والألم. وممّا يضرب في الشكوى من الأقارب، هذا المثل" إنما أخشى سيل تلعتي"(١). ويتأكد هذا المعنى في نصّ آخر يقول: " إنما يلحق الآن الضرر من المعارف، ومن يقع عليهم اسم الإخوان، ذلك أنهم يطالبون في المودة بما لا يفعلون مثله"(٢). تتجلى الهواجس والمخاوف الكامنة في النفس، بسبيل الموازنة التي يعقدها المنعزل بين الألم الناجم من الوحدة في حدّ ذاته، والألم المتحصل من الأصدقاء والمعارف، بسبب الغدر أو قلة الوفاء والتنكر وغيره، ويبدو من النصين السابقين أن الوطأة النفسية في الثانية أقوى وأعظم؛ ومن هنا كانت العزلة الملاذ الآمن من الوقوع في الخيبات والندم.

وبما أن الحياة تنزع شعور السكينة في كثير من أوقاتها نتيجة لاختلاف الناس في مشاربهم وتوجهاتهم وأمزجتهم، بالإضافة إلى ما تفرضه طبيعة الحياة من تفاوض وتدافع وتفاعل، وما ينجم عن ذلك من توترات وملابسات، فقد شاع في النصوص الشكوى والتبرم من الظلم والتعدي والحيف. يروي التوحيدي في الصداقة والصديق:" لقد صحبت النّاس أربعين سنة فما رأيتهم غفروا لي ذنبًا، ولا ستروا لي عيبًا، ولا حفظوا لي غيبًا، ولا أقالوا لي عثرة، ولا رحموا عبرة"(٣). يقوض التوحيدي المعاني الوجدانية المنبثقة من العلاقات الإنسانية الخاصة، كالشعور بالانسجام والراحة، والطمأنينة التي تنفي توضيح النيات والمقاصد وتبرير الأقوال

(١) الميداني، معجم الأمثال، ج١،ص٣٣

(٢) التنوخي، نشوار المحاضرة، تح: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت،ط٢، ١٩٨٥م،ج٢،ص٢٥٣.

(٣) التوحيدي، الصداقة والصديق،ص٥

والأفعال وتدقيقهما، بل على العكس من ذلك جسد النصّ مشاعر الكراهية والحقد، فأصحاب التوحيدي جماعة من المترصدين الذين يرتقبون الزلات والعثرات والعيوب، ويسعون إلى إشاعتها بين النّاس.

بسبب ذلك كلّه، حققت العزلة لسالكها تحررا من الواجبات والمتطلبات التي تفرضها العلاقات الاجتماعية بتنوعاتها المختلفة، فالخلطة توجب التغافل بين الأصدقاء، والتغاضي بين القرابات، والمنح والبذل، والإقرار بالفضل، وتعهد المودات، وغيرها من الأمور التي قد يشعر النّاس إزاءها بالعبودية والتكبيل والمشقة. وإذا كان الاختلاط بالناس يشدّ المرء إلى التعامل مع غيره وفق اشتراطات معينة، فإن العزلة تمنحه حرية وتخففا من هذه القيود والتقاليد.

وقد تسرب هذا التضافر بين الإحسان وشعور المحسن إليه بالثقل والقيد، في كثير من النصوص الشعرية والنثرية، يقول البيت السائر:

أحسن إلى النّاسِ تستعبد قلوبهمُ ∴ فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ[1]

وكذلك قولهم في المعنى نفسه: " إن الإخاء رقّ"[2].

ولأن البذل والإحسان، في وجه من وجوههما، يتلبسان لبوس المنّ والاستعباد، فقد قامت العلاقات الاجتماعية على ثنائية واضحة؛ ونعني بها الأخذ مقابل الردّ، فلا عطاء دون مجازاة، ولا بذل يذهب سدى، فالمحسن وإن كان مرجعه في التعامل دينه وأخلاقه، إلا أنه في الوقت نفسه يتوقع

(١) ديوان أبي الفتح السبتي، تح: شاكر عاشور، المورد، بغداد، ط٣، ٢٠٠٥م،ص١٠١

(٢) التوحيدي، الصداقة والصديق، ص٨

المعاملة بالمثل، ويترقب حسن المجازاة [١]. في هذا السياق يقول التنوخي لصاحبه: " كنا نشير عليك بفعل الإحسان... واتخاذ الصنائع في حال القدرة لتجازى بها الآن عند الحاجة، قال لو كنت فعلت هذا ما حصلت منه على طائل، لما في نفوس الناس من ضعف الإخاء وكثرة الغدر وقلة الوفاء"[٢]. يسفر النصّ عما أشرنا إليه سابقا من جدلية (الأخذ والردّ) فالتنوخي يرى أن إسداء الأيدي وبذل المعروف شفاعة للمجازة وقت الحاجة ولكن ما الضامن لذلك؟

يوضح النص أن للناس في رد المعروف مسلكين، فبعض النفوس إن تكبلت بمعروف سابق، سارعت إلى ردّه، تخففا من ثقل وطأته وانفراجا من عبوديته، وفي مقابل ذلك، ثمّة نفوس طبعت على الغدر واللؤم والتنكّر.

من أجل ذلك كانت "مكابدة العزلة أيسر من مداراة الخلطة"[٣]، وذلك لأن الخلطة تتضمن المنفعة، وبذل المنفعة يقتضي، أحيانا، من المتنفع المداهنة والتملق والخضوع، وإخفاء العداوة وتصنع المودة، وغير ذلك من الصفات الموصلة إلى المبتغى والغاية. ولهذا نفرت بعض النفوس، لما جبلت عليه من الأنفة والكرامة، من مخالطة النّاس خشية الاستعباد، وخوفا من عدم القدرة على ردّ الإحسان بمثله لما يخلّفه ذلك من الشعور بالمهانة والذّل. يقول التوحيدي:" وبعد: فأني أرى لك إذا أحببت معايشة النّاس

(١) تناول مارسيل مورس مفهوم المبادلة التي تقوم عليها العلاقات في كتابه الهبة، شكل التبادل وعلته في المجتمعات القديمة، تر: المولدي الأحمر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت،ط١، ٢٠١١م.

(٢) نشوار المحاضرة، ص١٢

(٣) القشيري، الرسالة القشيرية، ص١٠٤

ومخالطتهم، وآثرت لذّة العمر وطيب الحياة، أن تسامح أخاك، وتغالط فيه نفسك، حتى تفضي له عن كلّ حق لك"[١]. ولعلّ هذا النصّ يوضح بجلاء التكلفة التي تفرضها تلك العلاقات، فإذا كانت لذّة العمر وطيب الحياة منوطة بعقد الصداقات، فإن الثمن الذي يدفعه المرء جراء هذه اللذة مكلف؛ فهو مزيج من المسامحة والتنازل عن الحقوق والإيثار على النفس.

الخلوة بذكر الأحباب:

بدت الخلوة، في كثير من النصوص، ظرفا محببا للعشاق؛ ففيه يستحضر المحب محبوبه ويتلذذ برؤيته في الخيال ويعيد أحاديث المعشوق ويرددها في ذهنه، هذه الخلوة معوضة لفقد الحبيب، أو هي بتعبير آخر وصل متخيل لمن انقطعت به سبل العشق؛ فالخلوة إذن بمثابة النشوة المؤقتة التي تعوض التواصل المادي أو الجسدي بين العاشقين، من خلال استحضار طيف الحبيب والإنس به، يقول مسكويه عن الطيف:" هو اسم لصورة المحبوب إذا حصّلته النفس في قوّته المتخيلة، حتى تكون تلك الصورة نُصب عينه، وتجاه وهمه كلما خلا بنفسه"[٢]. ونلاحظ من التعريف السابق التواطؤ الزمني بين ظهور الطيف والانفراد بالنفس؛ فساعات الخلوة مستدعية بالضرورة ظهور طيف الحبيب وتناسل ذكرياته، وتنطوي هذه التجربة المؤنسة على نوع من المفارقة قوامها الالتذاذ بالألم وبواعثه من حرمان وشوق، وهجر وموانع. فالوصل هنا موحش والمتعة والسكينة زائفتان.

---

(١) التوحيدي، الهوامل والشوامل، ص٢

(٢) الهوامل الشوامل، مسألة ١٤٠

وتندرج الخلوة ضمن طقوس الإبداع الأدبي، فالشعراء على اختلافهم يجمعون على ممارسة الانفراد والعزلة، إما على ظهر الرواحل وإما في القفار وغير ذلك؛ لما للخلوة من أثر في تدفق الأبيات، ولذا كان الانفراد بطيف الحبيب، ضمن عادات الشعراء وخاصة الغزليين، لأنها تقدح إلهامهم، وتفتق أذهانهم، وتيسّر ما استغلق عليهم للولوج إلى عتبة القصيدة، بما تهيجه تلك الخلوة من كوامن الشوق ولواعج الحنين.

خاتمة:

اعتنت الدراسة بأخبار العزلة بمسالكها المختلفة، التي تشترك في كونها تمارس دورًا مضادًا للفطرة الإنسانية، وعملت هذه الأخبار على تحجيم هذه الفطرة النازعة إلى حب الاشتراك والإنس بوجود الغير، وألمحت الدراسة إلى تفاوت درجة الضدية في النصوص، فهي تخفت في بعض النصوص وتبرز في البعض الآخر.

وتوصلنا من هذه الدراسة إلى الإقرار بوجود نوع من المفارقة؛ قوامها تلك الرغبة في الانفراد والسكينة التي لا تتجسد إلا في التواصل، فنجد أن فعل العزلة في حدّ ذاته يرمي إلى تحقيق صلة ما ، أيا كان نوعها، فالإنسان المنفرد في الصحاري والقفار يأنس بالوحش والحيوان ويستبدل بهما صحبة الإنس، والصوفي في عزلته المنقطعة يرمي إلى التواصل مع الذات الإلهية والركون إلى جواره والالتذاذ بالإفضاء إليه، والعالم في خلوته يركن إلى الكتب، وهو بذلك يخلق عالما موازيا يحاور فيه المؤلفين، يناقش أراءهم و يتفق في جوانب منها ويفند جوانب أخرى. أليس في ذلك كلّه، نوع من تهذيب العزلة والوحشة وتوق إلى الإنس والوصل، وتحقيق لهما؟.

المصادر والمراجع

- الأبشيهي، المستظرف في كلّ فن مستطرف، تح: درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠١٣.
- ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد، العزلة والانفراد، تح: مسعد السعدني، مكتبة الفرقان، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م.
- ابن الجوزي، المدهش، تحقيق مراون قباني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٥.
- ابن القيم الجوزية، زاد المعاد في هدى خير العباد، تح: نبيل السندي، دار عالم الفوائد للنشر، مكة المكرمة، ط١، ٢٠١٨م.
- ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تح: ابن الخطيب، مكتبة الثقافة الدينية،الإسكندرية، ١٩٩٨م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م.
- أبو الفرج بن الجوزي، صيد الخاطر، المحقق عامر ياسين، دار ابن خزيمة، الرياض، ط١، ١٩٩٧م.
- أبو موسى، محمد بن محمد، قراءة في الأدب القديم، دار وهبة، القاهرة، ط٤، ٢٠١٢م.
- الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، دار الكتب العلمية،بيروت، ط٢، ١٩٩٢.
- الأصفهاني، أبو بكر محمد بن داود، الزهرة، تح: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء،ط٣، ١٤٤٣ه.

- الألوسي، محمد شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تح: محمد الأثري، دار الكتاب المصري،القاهرة، ٢٠٠٩، ط١، ١٨٩٢م.
- برديائف، نيقولاي، العزلة والمجتمع، تر: فؤاد كامل، دار آفاق للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٨.
- تايلر، تشارلز، المتخيلات الاجتماعية الحديثة، تر: الحارث النبهان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط١، ٢٠١٥.
- التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تح: عبود الشالجي،دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥.
- التوحيدي، علي بن محمد بن العبّاس، الصداقة والصديق، تح: إبراهيم الكيلاني، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٨م.
- التوحيدي وابن مسكويه، الهوامل والشوامل، مؤسسة هنداوي للنشر.
- الثعالبي، عبد الملك بن محمد، التمثيل والمحاضرة،تح: عبد الفتاح الحلو، الدار العربية للكتاب، القاهرة،ط٢، ١٩٨١م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٤م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، البخلاء، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط٢، ١٤١٩ه.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.

- جوزيه سراماغوا، العمى، تر: محمد حبيب، دار المدى، بغداد، ط٣، ٢٠١٣.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم الأدباء، تح: إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت،١٩٩٣م.
- خضر، العادل، الجاحظ والبيان الآخر، دار مسكلياني للنشر،تونس، ط١، ٢٠١٧م.
- الرقيق القيرواني،أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم، قطب السرور في أوصاف الخمور، تح: أحمد الجندي، مجمع اللغة العربية، دمشق،١٩٦٩.
- السبتي، ديوان أبي الفتح السبتي، تح: شاكر العاشور، المورد، بغداد، ط٣، ٢٠٠٥م.
- سرحان، هيثم، الأنظمة السيمائية، دراسة في السرد العربيّ القديم، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.
- ستيتكيفيتش، سوزان، القصيدة العربية وطقوس العبور، دارسة في البنية النموذجية، مجلة اللغة العربية، دمشق، مجلد٦ عدد ١، كانون الثاني، ١٩٨٥، ص٥٩.
- طرفة بن العبد، الديوان، تح: مهدي ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٢م.
- عبد السلام، محمد، الموت في الشعر العربيّ، تر: مبروك المناعي، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠١٧.

- العماد الأصفهاني، محمد بن محمد صفي الدين،خريدة القصر وجريدة العصر، تح: آزرتاش آذرنوش، الدار التونسية للنشر، تونس، ط٢، ١٩٨٦.
- غوفمان، أرفنغ، تقديم الذّات في الحياة اليومية، تر: ثائر ديب، دار معنى للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ٢٠٢١م.
- الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة ومضاداتها، نشره بعناية علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٥.
- فوكو، ميشيل، المراقبة والمعاقبة ولادة السجن، تر: علي مقلد، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٩٩م.
- القشيري، عبد الكريم بن هوازن، الرسالة القشيرية، تح: عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ٢٠١٤م.
- المحاسبي،الحارث بن أسد، الخلوة والتنقل في العبادة ودرجات العابدين، شرحه أغناطيوس اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٥.
- موس، مارسيل، بحث في الهبة، شكل التبادل وعلته في المجتمعات القديمة، تر: المولدي الأحمر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠١١م.
- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، تح:محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٩٧٢م.
- يحيى، صميم حسب الله و نورس عادل هادي، تمظهرات العزلة في المسرح المعاصر، مجلة الأكاديمي، ع ٩٦، ٢٠٢٠ ، (٦٣- ٨٠).

فهرس الموضوعات

م	الموضـوع	الصفحة
١-	ملخص	٩٩٥
٢-	Abstract	٩٩٦
٣-	مقدمة	٩٩٧
٤-	تعريف العزلة:	١٠٠١
٥-	الأحوال المنجرّة عن العزلة:	١٠٠٦
٦-	١. الحزن والتبرم:	١٠٠٦
٧-	٢. الوحشة:	١٠٠٩
٨-	٣. الجنون:	١٠١٠
٩-	مسالك العزلة في نصوص المدونة:	١٠١٣
١٠-	العزلة بوصفها طقسا للعبور:	١٠١٣
١١-	العزلة عبادة:	١٠١٦
١٢-	العزلة انعتاق:	١٠١٨
١٣-	الخلوة بذكر الأحباب:	١٠٢٢
١٤-	خاتمة:	١٠٢٤
١٥-	المصادر والمراجع	١٠٢٥
١٦-	فهرس الموضوعات	١٠٢٩

تم بحمد الله